Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وموجز مناسبة هذه القصيدة أن أبا ذؤيب فجع فى بنين خمسة ، ماتوا فى وباء أصاب جيش المسلمين فى فتح مصر إبان خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وموت خمسة أبناء فى وقت واحد أو على التوالى فاجعة تهز كيان أى أب هزا عنيفاً قد يؤدى إلى تصدع هذا الكيان ، وقد يؤدى إلى تحطيمه وانهياره ، ولكنه فى كل حال لابد أن يمتلىء هذا الكيان حزناً وأسفا .

وإذن فنفس أبى ذؤيب لابد أن تكون حينئذ ملأى بالحزن والأسى ، فهل عبرت القصيدة عن هذا الحزن العميق المتدفق ؟ والجواب أن القصيدة تحدثت عن الحزن والألم ، ولكنها لم تعبر عن هذه الفاجعة كما ينبغى أن تعبر شاعرية مثل شاعرية أبى ذؤيب الذى لا يكاد النقاد يختلفون على أنه أشعر هذيل ولا يكادون يختلفون أيضاً على أن هذيلاً كانت حينئذ أشعر قبائل العرب ، هذا مع أن القصيدة كانت بالغة الروعة والشاعرية فى عناصر أخرى غير عنصر الحزن المباشر ، أو الحديث الصريح عن الحزن ، وهنا يثور سؤال آخر : كيف ترتفع القصيدة فى حديث العناصر غير المباشرة لموضوع القصيدة ، ثم لا ترتفع بهذه الدرجة فى العنصر الأصلى المباشر وهو حديث الموت والحزن ؟ والجواب أن كل الملابسات والعوامل النفسية ، بل ومعانى القصيدة نفسها توحى بأن أبا ذؤيب لم يقل هذه القصيدة ليعبر بها عما فى نفسه من حزن ، ولا ليرثى بها بنيه ، وإنما كان الأمر بالعكس ، وجد أبو ذؤيب أن الحزن يكاد يهد كيانه هدا ، وهو فى بيئة تتنافس فى القوة ، ولا زالت صراعات الجاهلية حول التنافس فى القوة الفردية لم تزل كل الزوال ، فلم يكن غريباً أن يشعر أبو ذؤيب أن ضعفه تحت وطأة هذه الكارثة سينزل بقدره فى المجتمع ، وسيفتح عليه أعين الشامتين وألسنتهم ، فأنشأ هذه القصيدة لا ليعبر بها عن حزنه ، وإنما ليعبر عن جلده واحتماله ، ثم ليواسى نفسه بأن الموت لا يصمد أمامه شىء ، فمن الحكمة الرضوخ له ، لأن الانسياق وراء الحزن غير مجد ، بل الأمر بالعكس .

وليس هذا استنتاجاً ، وإنما هو واقع معانى القصيدة ، فإن القصيدة على تباعد معانيها فى الظاهر ـ لا تتجاوز التعبير عن الشعور المسيطر على أبى ذؤيب حين أنشأها ، وهو حرصه على إظهار تجلده وتماسكه ، مستخدماً كل معانى القصيدة لتحقيق هذا الهدف ، وقد سارت القصيدة على منهج التدرج من الإجمال إلى التفصيل كما سبق ، ويمكن إيجاز ذلك كما يلى :